

الموتى يتكلمون



نصوص

جوان تتر





جوان تتر
الموتک یتکلمون هباے

الكتاب: الموتى يتكلمون هباء - نصوص
المؤلف: جوان تتر

جميع الحقوق محفوظة
2017



دار أبابيل للنشر

00905389886909

00963959327435

E-mail: imadmusa1@gmail.com

www.ebabil.net

www.facebook.com/AbabeelBook

تصميمه: الزلفاء زبير فارس (الجزائر)

نصوص

الموتک یتکلمون ھباے

جوان تتر

دار أباییل للنشر ۲۰۱۷

المُحتوى

تقديم: سمكة داخل الأكواريوم/ صلاح باديس

البيوتُ

فِرَاش

الأغاني

صَوَر ٢٠١٦

سَكَكِينُ الوَحْدَةِ

الشَّعْرُ

انتحار

عُدِّي أَصَابِعُكَ

"لا أريدُ لهذي القصيدة أن تنتهي"

خمارة سعيد جرجس

صورة المدينة

القامشلي: ثمة دماء في الشارع العام

أغنية تصدح من بيت جاري (الديري)

أبواب معدنيّة

هل يمكنني النوم

قسَمُ النهايات

سمكة داخل الأكواريوم

"سمكة داخل الأكواريوم" هذا ما فكّرت فيه وأنا أقرأ هذا الديوان، سمكة نحيفة وناعمة، رققها الشعر، تدور من زاوية لأخرى وتطالع الخارج من خلف الزجاج بعيون جاحضة، تدور وتدور قبل أن تنسحب إلى وكرها، كأنّ هذا الأخير سيحميها لو انفجر الأكواريوم. ربما يصبح الإحساس بالخسارة أقل عندما ننسحب إلى أوكارنا... لا أعرف... أو ربما نحن من نتوهم ذلك عندما ننكمش على ذواتنا... لكن عندما يتهدّم كل شيء في الخارج أو عندما يصير الخارج لا يشبه صورته في عقولنا وذكراه، عندما تصدأ المرايا بعد كل الوجوه التي خبرتها، وعندما ينكسر الميزان الذي كان يمرّر الحياة بين نهار نعيشه وليل نتهكّم ونجرّد فيه ما عشناه ونسكر ونحن نبكي أو نغني، عندما ينكسر الميزان... تتأكّد عبارة بودلير التي تقلّب وظيفة النوافذ لتجعلها ثقبوا يطلّ منها الخارج الأعمى على الداخل "الأسود أو المضيء (حيث) تعيش الحياة، تحلم الحياة، تعاني الحياة".

جمع جوان تتر في "الموتى يتكلمون هباءً" تجارب كتابة عديدة ومُتبائية، مثل عامل متجر منهوب بقي في العمل لساعات إضافية لجرد المبيعات والمشتريات والخسائر، وبعد أن غادر الجميع وانتصف الليل جمع ملفات الحسابات كلها وانكفى. قصائد مَبَوَّبة بلا عناية كبيرة في العنونة، قصائد طويلة وأخرى قصيرة، شذرات تختزل ما قبلها وأخرى لا تعني شيئاً، يوميات... يوميات مهزّبة... حياة مهزّبة، حياة داخل أكواريوم، حوض سملكٍ مُغلق ومحاصر، وفيما يحكي العالم عن البحار ومآسيها، ينسى الجميع الأكواريوم. ينسى الجميع الأكواريوم بالموت الجاثم عليه، وبالحياة التي فيه، أو ما تبقى منها، مثل الغاز الذي يتبقى للشاعر في قعر الجرة. الحياة البعيدة في العواصم والمدن، البعيدة عن القرية، والتي تسقط في البحر (بعيداً أيضاً) وتفنّ في المخيمات، الحياة الحاضرة في كل تلك الهناكات والمتناقضة هنا. ورغم أنّ جوان قد كتب في قلب ديوانه: "لَا يَتَوَجَّحُ عَلَيْنَا الدُّنُوّ مِنْ الذِّكْرَى إِلَّا لِلتَّسْلِيَةِ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَبْقَى عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الدُّعْر" إلا أنه يخاطر بالدنو أكثر، من الذكري والذعر على حدّ سواء، ويلعب في تلك المسافة القاتلة...

ربما لأن سؤال الكتابة الأكثر حضوراً هو "من يصنع الذكرى؟" نحن أم المكان، وهل تبقى إذا ما غبنا أو غاب المكان، وهل ننجو إذا بقينا لنحرس هذه الذكرى، أم نهلك مع من ماتوا ومن تركوا؟ وهل فعلاً نحن باقون لنحرس الهواء، أم هو عذر حتى لا نهاجر؟

ولأن الكتابة امتحان للشاعر وللأشياء، نجدُ جوان يقتربُ أكثر من الذكرى لامتحانها، ويكتبُ عن البيوت الصغيرة والدافئة والمضحكة، عن أماكنها اللا مرئية التي تبتلع كل ما هو زائد. يكتب عن نفسه، عن الشاعر الذي قد ينتحر أو يموت ميتةً عادية. شاعرٌ يموت لكن لا انفجار في المدينة اليوم. يكتبُ عن صور الذين ماتوا أو تركوا أو انتحروا وعن الذين بقوا، علقوا ربما، عمن لا يأبه للذكرى ويخترع سبباً اسمه "عدم وجود سبب" لكي يبقى ولا يُغادر... يسميهم واحداً واحداً، يسمي أماكنهم أو يهدي لهم قصائده، شعراء وأصحاب محلات وبشرٌ عابرون...

إلى الأصحاب من حضر منهم ومن غاب، كما يقول مطربو الرّاي في بداية أغانيهم الحزينة.

صلاح باديس / ١٢-١٢-٢٠١٦ / الجزائر العاصمة.

البيوت

**

أَمُقْتُ الْبُيُوتَ الْكَبِيرَةَ، لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ صَغِيرَةً رَحِيمَةً بِالْجُزْئَاتِ
الْمُتَطَايِرَةِ، هُنَا رَذَاذُ سُعَالِ الْعَجُوزِ، هُنَاكَ-قَرِيبًا- الْطِفْلُ نَسِيَّ مَا
كَانَ يَجِبُ أَنْ يَرْتَدِيَ لِيَقْفِيَ حُنْجُرَتَهُ الْبَرْدَ الَّذِي فِي الْخَارِجِ، حَبْلُ
الْغَسِيلِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ قَصِيرًا يَكْفِي مَلَابِسَ شَخْصٍ وَحِيدٍ،
السَّرِيرَ ضَيِّقًا بَحِيثٌ يَتَسَعُّ لِجُنَّةٍ نَحِيلٍ أَوْ رُبَّمَا هَيْئَةً أَدْمِيَّ شَبَهُ
حَيٍّ...

هَلْ هَذَا كُلُّ شَيْءٍ؟... لا..

عَلَى الْبُيُوتِ أَنْ تَكُونَ ضَاحِكَةً وَ شَبِيقَةً، أَنْ تُلْمَلِمَ كُلَّ مَا هُوَ
فَائِضٌ وَتَبْلَعَهُ فِي مَكَانٍ مَا غَيْرِ مَرْتِيٍّ،
عَلَى الثَّلَجِ أَنْ يَخْجَلَ مِنَ الشَّبَابِيكِ الصَّغِيرَةِ أَنْ تَسَاقُطَهُ نُدْفًا
هَادئةً كَوَدَاعِ طِفْلٍ.

**

**

عَبْرَ الْهَاتِفِ.. يَأْتِي الصَّوْتُ عَمِيقاً وَكَأَنَّ جُثَّةً مَا تَتَكَلَّمُ مِنْ قَبْرِ..

هَكَذَا خَيَّلَ إِلَيَّ..

"مَاتَ الْأَبُ مَتَأَلِماً لِفِرَاقِ الْمَنْزِلِ الصَّغِيرِ"، أَظْهَرْتُ أَلَمِي بَيْنَمَا

قِطَّةُ الْجَارِ تَتَقَافَرُ مَمْسُوسَةً بِالْأَمِّ الْغَدِ..

لَمْ أَعِ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ مَوْتِ الْأَبِ وَتَقَافِرِ الْقِطَطِ..

أَنَا لَا بُدَّ أَهْذِي... قُلْتُ..

الْبُيُوتُ تَحْزَنُ كَذَلِكَ... تَبْكِي الْأَحْلَامُ وَتَنُوحُ الْعَوَامِدُ الْإِسْمَنْتِيَّةُ

وَالْقِطَطُ تَتَقَافَرُ مَمْسُوسَةً..

**

**

السكينة في المطبخ.. وأقداح الشاي.. فنأجيز القهوة التي
أحسيت على عجل..

ثمّة ما يجب أن يُعاد ترتيبه، أن نرقّد مطمئنّين داخل الثلاجة -
صنيع الموتى غالباً- ونحرص على هدوء ما خفي..
لا ضير أن نكون على يقين من أن الرياح تغدو لطيفة حين نغني
لها داخل البيت الصغير.

**

**

جَالِساً في المنزل.. المنزل الصغير الذي أودّه أن يكون
مُقْتَعِداً الكرسي الخياليّ للغياب ..
مُتَأَمِراً مَعَ العَتَمَةِ.
جَالِساً في المنزل الصَّغِيرِ.. لاشيء أكثر...

**

فِرَاشُ

**

بِعَيْنٍ واحدةٍ أترقبُ المازّة، يهتفون لبعضهم غمغماتٍ لا أفهمها،
"ثمَّ لعلَّ الموتى يتكلمون هباءً"، أُسرُّ لنفسي مبتسماً!!
دهاءٌ أن أسكب زيت قلبي البطاطس من شاهقٍ على رؤوسهم
الفارغة الآن، أو ربما هي دناءة، "الدنيء رجلٌ يبيع"، أعترف
للسرير الممدّد في ضوء شمس الشتاء، فاردّاً روحه للنائمة
التّحيلة، لقد تعبّت ليلة البارحة وهي تشهقُ عبر السكايب برفقةِ
اللّعينِ الألمانيّ!، وعدّها ببيتٍ على شاطئ، أو لعلَّ الكابوس
بشأن الموتى كدّر سلامها الداخليّ لذا شهقت مرّاتٍ ومرّاتٍ
وتقولُ: "عمت مساءً أيّها النفاق يا سيّد الغيب!"، تكلمتُ وكأنني
طاولةٌ متهرّئة أو شاحن هاتفٍ جوّالٍ عاري الأسلاك.

غارقاً في تلاوة الأبراج لفؤادي الذي لا يسمعُ غير صوتي
الخَفِيز، أُخَفِّفُ عن ذاتي بأنَّ الحرب ستنتهي طالماً شَهِقْتُ
النَّحِيلَةَ وانقطع الاتِّصال، دلالاتُ ما من الغيبِ غيرُ مترابطة
سَتُحَقِّقُ النبوءَةَ حتماً في الأبراج السخيفة..

العجورُ جارثنا بَكَتْ وَلَدَها العشريني، -إثرَ صَعَقَةٍ ماتَ-، أَكْرَرُ
العبارة القديمة: كُلُّنا سَنُصْعَقُ يا جدَّة، كُلُّنا سَنُصْعَقُ وَهَوِي من
شَاهِقِ، الكلابُ بنباحِها الصباحي أَغْنَتِ الرُّؤى وازدادَ اليقين!!
على الرِفِّ الموازي للسريِر، ثمة معجون أسنان لا تستخدمُهُ
النَّحِيلَةُ وَلَسْتُ مِمَّنْ يَتَّبَافُونَ بِنِصَّاعَةِ أسنانهم! ربما هي لشبح
الميتِ في الكابوس، أَقْنَعْتُ ذاتي كي أَبْتَعَدَ عن الرعب، لا وقتَ
للرعب هذا الصباح،

أَفَكِّرُ، البردُ لا شكَّ التهم أطراف اللاجئين في المخيِّمات البعيدة
كمثلِ مُعسِكَراتٍ تروِّضُ الإثْمَ، أنا جالسٌ على أريكةٍ مريحة
وجاري الحطَّاب يلعن حظَّهُ، إني أسمعُه يلعن ويترك زوجته
لأشباح عسَّاقها وينامُ كل ليلة كأنَّه جُثَّة!

**

**

على الرغم من أنني أرتجت الأبواب والنوافذ، من أن الغد يمدّ
لسانه مستفزاً ذاتي الوهنة، الذكريات تمكّنت من الهروب
واختفت في مكانٍ ما داخل المنزل، دميقي الصغيرة تبسّم
لارتباكي وحيرتي، الكتب كذلك سَخِرَت والأقلام القديمة التي لا
تدوّن سوى الفراغ ناصعاً.

هل أوقظ الموتى الذين تناسوا ذكرياتهم داخل الغرف العديدة
للمنزل؟ أنقذوني، أهتف من قعر حنجرتي، أستنطق المرأة
القديمة التي حَبِرَت وجوهاً في الماضي، الملابس الرثة التي
ابتعتها ذات يوم من حانوت ثمل يبيع الرجال ثياب النساء بكّت،
الصورة القديمة لمقاتلٍ فرّت، غائباً عن كلّ شيء، أصوت
كضفدعٍ دُعِسَ للتوّ، أقبض على الذكريات مُختالَةً برنينها كرنين
قرعٍ في الكنيسة أيام الأحاد.

**

**

لستُ شجاعاً بما يكفي لأن أقول لذاتي:
تاه الغبارُ، وبعيداً عن الوقت الذي أهدرته في العاطفة، أنقر
نقراتٍ خفيفة على جدار الأشياء كي تستيقظ دون أن ترتعب
وتتذكر أهوال ما ارتكبتُ..
القضاءُ ليس لك وحدك، ثمة من يرتكب إثماً الآن مخطئاً المرأة
أو باصقاً على ظلاله وحيداً في غرفةٍ فسيحة الأنواء.

**

**

على الرغم من قُرب الأشياء وليونة ملمسها، يشعر المرء على الضدّ من ذلك،

إذن، علينا أن نرتّب الأسرّة عندما نستيقظ كي نشعر بخشونة النوم ومكره، كما أنّ الوقت لا يسمح لصفاقاتٍ أخرى، كأن أنهر الكلب المربوط بعمود الإسمنت أو أتشاجر مع باعة البيرة بدعوى انتهاء صلاحيتها للبشر، كلُّ شيء لا بدّ أن يكون مرتّباً حدّ القرف.

**

**

يتذكّر كل شيء ذاته، الحطّاب وناطورُ البناء، الوالدة وهي تنسى
الأضواء مشتعلَةً حين تغفو على مخدّة زوجها قبل سنواتٍ
بعيدة، الرجلُ الكفيفُ الذي كان يشتم نصوص الأصدقاء لأنّ
من يقرأ كان يتلعثم في استنطاق الكلمة،
ولكن هل نسي أبي أن يموتَ حقّاً؟، وإلاّ فلن كل هذه القهقهات
التي أسمعها بوضوح في غرفته المجاورة لقنّ الدجاج؟!

**

**

نسيْتُ أن أعَيَّ جرَّةَ الغاز الصغيرة، منذ ثلاثة أشهر وأنا
استعملها، كان بها جرعة تكفي لإعداد فنجان قهوة، ذلك أمرٌ
أكيد، هل هي الأشباحُ عادت إلى احتساء قهوتي المرَّة؟، أسأل
نفسي دون توريةٍ أو تفكُّرٍ بما سيؤول إليه حال الشبح أن انتهاء
الجرعة المتبقيةً بشكلٍ تامٍّ، لا بدَّ وأنَّه سيتدارك الأمر، يسرق
جرعاتٍ من جرَّة جاري "الشابَّ النحيل" في الطابق الأعلى.

**

**

ماذا لو انهارت قطعة الحديد المثبتة فوق رأسي؟
حتماً سَتُعَرِّزُ في صدري العاري، ولكن، أنا وحيدٌ في المنزل الذي
لم يَرِ النور مُذْ تهافتت ذكريات الوافدين إليه في الأرجاء
الرخاميّة، ليسَ مهمّاً، غير أنّ مشهد الدم وهو يسيلُ من فمي
نصف المفتوح سيغدو ذكرى باهتة، نقاط الدم على جدران
الشرفة ستكونُ علامةً فوتوغرافيّةً، سيكتبون عني في الصحف:
غادر مواطنٌ آخر وما من تفجيرٍ في المدينة!!
سأبقى ممدّداً حتّى الصباح، وربما المساء، إلى أن يكتشفوا أمر
موتي، ستصلُ رسائلُ كثيرة إلى علبه الوارد وأجملها تلك التي
تقول :

"أَوّاه، لم يَرِ أيلولَ هذا العام... يا للمسكين..."

**

**

شاعرٌ مات، يصرخُ المؤذن الذي "دوخنا" منذ بداية توافدِ
الرُّسل إلى الأرض، شاعر مات ولم ينس قصيدته التي مزّجها
على مرأى من الضباب، كانَ سكّيراً ويتسوّلُ الكلمات، تقولُ
والدته التي تبرأت منه، يبكي كالأطفال ويقهقه كالممسوس. هذا
فقط كانَ صنيعةً، شاعرٌ مات...شاعرٌ مات...

**

**

الهواءُ كانَ نظيفاً في القرية، وكذلك الهُراءُ الموزَّع في الأنحاء،
كانَ أبي يمسكُ عنق الزجاجة وكأنَّه يتهيأ للذبح، كانَ لوحده
داخل السَّرد، يخبئ لنا أياماً قصيَّةً في البُعدِ، كنتُ الصغير
الوقح،

لا زلتُ حتَّى الآنَ أنام دون أن أهتف: تصبحونَ على خير.

**

الأغاني

إلى : خوشمان قادو

- *مَيِّتٌ ولم يدفنه أَحَدٌ، لم يعلّقوا رسمه على حائطٍ ترابيٍّ
يتهاوى من ثقل الصور، كفاتحٍ أو شاعرٍ أو يتيمٍ!!
مَيِّتٌ ولم أسمع التلاوات الرقيقة فجرَ موته.

**

-ألتفتُ فلا أرى الكهلَ الذي شدّني من حلمي، لا أرى الأقدامَ ولا
الأحجارَ المرصّوصةَ أمام باب الدّار، أسمع النحنحات القديمة
لجدتي وهي تهزّني لأنني سكبتُ اللبن،
غادري أيتها الروح مع أشباهك ولا تؤوبني، ثمّة ذنابٌ نمت مع
الطفولة، وثمّة من يفترسُ القلوب الآن على الشرفاتِ الملوّنة
براياتِ الخسارة.

**

-الأغاني إذ تصدح، ذاكرةً عقلي بقلبٍ من أودّ، هكذا يوّد الغائبُ
أن يرسمُ بكفّه على الورقِ المسطّر بذكرى الشوارع العتيقة،
ماذا حلّ بالنهار الطويل وهو يُرَقِّعُ الأسماء والألقاب؟

**

كلُّ أمرٍ يؤوبُ إلى ما كانَ عليه، الطفلُ يغدو فتىً ويسترجعُ كلَّ
الذي كان.

**

شَيْءٌ مَا كَعَجَزٍ أَوْ حَيْرَةٍ.. يَخْتَلِطُ الْأَمْرُ عَلَيَّ وَأَنَا أُرَتِّبُ الْفَنَاجِينَ
التي لَوَّثَهَا الْغَيْمُ إِثْرَ شَجَارٍ مَعَ الْأَسْطُحِ الثَّرَابِيَّةِ...
كَاتِمًا مَا جَرَى أَتَفَقَّدُ أَنَا مَلِي.. وَوَهْيِي يَسْبِقُنِي إِلَى الرَّقَادِ.
مَا مِنْ رَافَةٍ هَا هُنَا لِأُعِيدَ تَرْتِيبَ الْأَسْمَاءِ الْقَرِيبَةِ فِي دَفْتَرِ ذَاكِرَتِي..

**

الحِكْمَةُ دَاءُ الْأَزْلِ!

أَقُولُ وَأَنَا أَضْحَكُ لِلْمُفَارَقَةِ

حَيَاتِي لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ حَكِيمَةً وَلَسْتُ أَبْهَأَ أَصْلًا بِالْفَلَسَفَةِ!

لَا يُهْمَنِي أَنْ يَكُونَ لِلخَيْرِ مَبْتَدَأٌ، إِنَّهَا حَرَكَةٌ سَهْلَةٌ .. أَفْتَحُ نَافِذَةً

الْغُرْفَةَ لِتَسْعَدَ الْكَائِنَاتُ .. هُوَ ذَا الْخَيْرِ فِي تَكُونِهِ ..

**

كَانَتْ الْفَتَاةُ تَحِبُّهُ وَكَانَ الْمَقْعَدُ خَالِيًا..

كَانَتْ الْفَتَاةُ تَحِبُّهُ وَكَانَ الْمَقْهى خَالِيًا...

**

أَشْتَمُ الْيَبَاسَ فِي مَفَاصِلِي وَلَا تَتَحَرَّكُ..
بِكَلِّ بَسَاطَةٍ أَرْفَعُ يَدِي الْيَمْنَى عَنْ عَيْنِ الشَّمْسِ لِأَغْدُو وَحِيداً
، عَارِياً ، أَمَامَ الْقُرْصِ السَّاحِنِ ،
لَا مَلِكَ سِوَايَ ، لَا مَتَسَوِّلَ أَيْضاً !!

**

في بيروت، في السّاحة العتيقة لذاكرتي

في بيروت، وراء الحياة.

**

(والبناتُ جَميلاتُ شَهِيَّات)!!

راياتُ بيضاء ترفرفُ أمام عيني

(البنْتُ طاهرة)، وكأَنَّ والدتي هي من أَرْضعتها إِثْرَ ليلٍ غامِضٍ،

الغد لن يكونَ جَيِّداً، أُسرُّ لِنفسي، ولا الآنَ أيضاً، فقط راياتُ

ترفرفُ و(البناتُ) جَميلاتُ شَهِيَّات!!

هل يفعلُ بَيّ النسيم على الشرفَةِ ما فعلته الشجرةُ بالثَّمرة؟ ، لا

أظنّ، هكذا أَتَفَوَّه والليلُ مومِسٌ شَهِيَّةٌ، (ارفعي الرِّداءَ الأحمر)...

أَمْضِي متناقلاً كحلْمٍ يُنسى بعد هَنِيئةٍ، كمثَل شيطانٍ أَوْقِظُ

الرغبةَ يا (صَبِيَّة)،

لستُ عَجوزاً بما فيه الكفاية لأكونَ رَحِيماً أو حَكِيماً، فقط أَرَقِّمُ

الخِباتِ وأسيرُ بدونَ عَكاظَةٍ، أَلْهي يسبقني بخطوةٍ والتَّهَارُ الذي

خلفي توأَمِي.

**

لا تقف كجدارٍ آيلٍ للحب!!
ما الخطأ في أن تلقى يدك اليمنى مقيّدةً بقدم السرير وأنت
تستيقظ من سباتٍ عميق؟،
الأشجارُ ترحّب بالأطفال والأملُ كمثُل ليلٍ يعجّ بالمواسمات.
إنّه وطنٌ، أو ربّما كانَ وطناً حزيناً في الغياب،
لنفكّر في الأمرِ معاً أيّها الطلُّ البعيد، لنفكّر في أنّ للفجرِ أظافرَ
طويلة وقذرة، أو أنّ للوطن الآنَ حصى تباغته في الظهيرة، وكمن
عاشَ دونَ أن يتفوّه ببنتِ شفةٍ أقطفُ ثمرة التفّاح ومن ثمّ
أرميها في قاع النّفس وأمضي!!

**

لا تجادل الفكرة، ولا تغضب من النسيم المغبر في القرية، لكل
لقب جرح كندبة جليّة ونقيّة ككلمة.
ماذا صنعتَ أيُّها الوقت وأنت تسرح في الغابة؟، ماذا صنعتَ أيُّها
الليالي الفاجرة؟
قلتُ همساً: لا تجادل وأنت تمضغ الأيام العتيقة، لا تقف
كجدارٍ آيلٍ للحب!!

**

لا بدّ وأنّ القطّة تجادل الحائطَ الإسمَنيّ، وإلّا فما كلّ هذا
الضجيج يا أمّي؟
لا بدّ وأنّ الصفصافة نامت.
لا بدّ وأنّ السردَ عجزَ وأنّ الضبابَ أنثى .

صُور ٢٠١٦

**

كَانَ الْبَيْتُ طِينِيًّا، وَكَانَ أَبِي يَأْخُذْنِي إِلَى فِئَاءِهِ كِي نَتَبَوَّلَ مَعًا عَلَى
مَا مَضَى مِنْ صُورٍ، وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ،
أَرْنُو الْآنَ إِلَى الْخَلْفِ بِنَظَرَاتٍ خَاطِفَةٍ كِي أَبْدُو مَعْتَوْهَا فِي نَظَرٍ مِنْ
غَابُوا،

وَكَانَتْ ابْنَةُ الْجِيرَانِ تَخْبِي حَمَالَةَ صَدْرِهَا الْمَعْلَقَةَ عَلَى مَنْشَرِ
الْغَسِيلِ كِي لَا أَبْصِرَ إِلَّا صُورَتِي عَلَى الْحَرِيرِ، كُنْتُ أَتَفَوَّهُ
لِلرَّصِيفِ الْأَبْلَهَ وَلِسِيَّاحِ الْحَدِيقَةِ وَلَكَلَّ عَابِرٍ، أَنَّ بَرِيدَ الْمَوْتَى فِي
دَرَبِهِ إِلَيْنَا وَلَكِنْ تَأَخَّرَ.

**

**

الذي ينتابني هو ما يمكن لأي ممسوسٍ أن ينتابه!، لا، تقولُ
صديقتي :

العالم ضيقٌ والفراغ أبوك الذي ماتَ غرقاً، معاً خطونا نحو
الباب لنغلقه فأغلقنا.

**

اللحنُ القديمُ المُدَنَّوُ خِلْسَةً في القلبِ، سَرَّيَانُ الوقتِ!

**

قولوا أيّ شيءٍ للعصافير،
قولوا: الضباب لفظهم جميعاً بينا هم يرتّبون الأسرار في الغرف
المقفلة البعيدة، داهمهم الضبابُ غفلةً عن أوامر الإله الغارق
في دفن الموتى ،
اصرخوا في وجه العصافير وقولوا:
المطر غابة الأقمار، سيّد كل شيء يطرقُ براءةٍ على النوافذ،
وجداتنا العزيزات لصقَ المستنقع -آخر البلدة- في انتظار الغامِ
لا تنفجر .
غادروني إلى الغياب، ودّعوا الأرصفة وقبّلوا الجدران وتبوّلوا على
الصور العتيقة لئلا تبدو بيّنة.
كلّ شيء جليٌّ الآن، الغيمة التي حطّت على رأسي وكذلك طفلة
الجار التي مانت إلى جانب السياج.

سَكَكِينُ الْوَحْدَةِ

**

- شُخُوصُ الْحَكَايَا:

ما جرى لم يكُ حلمًا، هكذا أُسْرُ للجدار النائم،
للنافذة التي لَامَسَتْهَا أُنَامُلُ كثيرة لا تُحصى وهي توقِظُ
المسترخي في أحلامه، الغارق في موسيقاه الداخليَّة،
الشارع الطويل الذي كان يحوي البيت ما زال قائماً مع
تغيّراتٍ طفيفة، أرفضها، وأبقى محتفظاً في ذاكرتي
بصورتها الأولى، غرفة أَسْمَنْتِيَّة صغيرة تحوي نافذةً
مطلَّة على الشارع، ستارةٌ شَقَافَة، وأصواتُ الموسيقى
مسموعة آنَ تخطُّ الخطوة الأولى في الشارع المؤدي إلى

البيت، (هايدن) أو ربّما أحياناً أناشيدُ كارمينا بورانا لـ
(كارل أورف) وأحياناً أخرى حينما يكون التذكّر على
أشدّه تسمّع (أم كلثوم) وهي تصدح في وضح النهار على
النقيض ممّا هو معتاد، الصّامتُ دوماً مسترخياً على
كنبةٍ قديمة حيثُ تتبععُرُ الكتب على سطحها الخشبيّ
المهترئ، مجموعة أوراقٍ بيضاء مخطّطة بالأزرق
الناشف أو أغلفهُ كتب، الرفوف الخشبيّة التي
تتضمّن أشرطة كاسيتٍ يعلوها الغبارُ القديم، "إنّها
لشقيقي الذي يقيم في أوروبا حالياً وبعضها لي"، يقول
الصّامت الذي يضحكُ بصوتٍ هامس لا يكاد يُسمع.
(قُسطنطين بيتروس كافافيس) الإسكندرانيّ، كانت
قصيدته "المدينة" هي أولى القصائد التي تعرّفت من
خلالها على شعرٍ حقيقيّ وإن كان ذلك ترجمةً قديمة
لا يمكنُ النظر إليها، ومن ثمّ اليونانيّ أيضاً الذي كنّا
نشبهه (يانيس ريتسوس)، إلّا أنّ البدايات دائماً ما
تكونُ ذات نكهة، أحاديثُ الطبيب الصديق عن دمشقَ
وعن أسماء تدوّنُ الشعر بعيداً عن المدينة الصغيرة
التي تأوينا، عن المديرية العامة للسّينما كذلك الأمر

ومديرها الذي يفتحون له أبواب السيّارة لحظة هبوطه الدرج المُفضي للخارج، الدخولُ إلى عالمها الذي يشبه عالم البوليس السري، كلّها أحاديث ما زلتُ أسمعها الآن بجلاء، هل يكفيني السردُ كي أنسى الآن؟، لا أعتقد، ما جرى ليس ذكرى إنّها حياتي التي كانت ولا تزال تحيا وإن في مكانٍ آخر بعيد، إلّا أنني أتحمّسها، ستعودُ، أصرّحُ.

- هذا ما قاله السردُ لي همساً، وأنا أتفحص زوايا غرفتي التي نعتها يوماً الرجل الصّامت بالأليفة، المدفأة ما زالت في مكانها، والوسائدُ التي استخدمناها، لو تكلمت!!، إلّا أنّ لها لغتها الصّامّة في سرد الأحداث العتيقة، فناجينُ الشاي التي كانت تحتضنُ عصائر منوّعة يبتدعها الصّامتُ في لحظات الفراغ المُغِطة، ولكن هل هذا كلّ شيء؟، كلّاً بالتأكيد، ثمّة غشاوة تحولُ دونَ الرؤية، كلّ رؤيةٍ ضبابٍ، على غرار ما كان يقرأه الصامت من وريقاتٍ للمتصوّف النّفري، المتصوّف الأوّل الذي عرفته خلل حياتي السابقة، كنتُ أعشق الكلمات وهي تخرجُ مصفوفةً ومُشكّلةً من

فم الصامت حتّى وإن كانت اللغة أغلب الأحيان
تعاندي ويستعصي الذهن على الفهم، لقد فهمتُ الآن
فقط ما كان يجري، اللغة سؤال الغريب وسلواه،
اللغة عنصرُ الإيضاح في زمن الغموض الذي أعيشه،
هذا كلّ ما في الأمر إذن، اللغة أداةٌ لاستحضار ما كانَ
قبل سنواتٍ بعيدة.

**

- أعي تماماً أنَّ الأماكن لها أرواح تشتاق ومن ثمّ تلهو
لوحدها بعيداً عن كلّ ضجيج، وأنّ الأشجار الحاضرة
على الكلام تشتاقُ هي الأخرى بكلّ بدهيّة، هل كانت لنا
قلوبٌ قاسية حتّى تَلَقَى هذا الجَزَاءَ غير العادل؟،
أمضي وأنا أرى ما لا يمكن لأحدٍ أن يراه في عيني طفلٍ
قديمٍ كنتُهُ، يا آلهة الذكريات أنقذيني، وانتشليني من
وحدتي، دعيني أتنقّس ولو لبرهةٍ عابرة، أن أستعيد
قواي التالفة مُذ وَلَجَ العالم إلى هذه الألفيّة العَفِنَة.
قريباً من الماضي وعلى مقرّبةٍ من الضحكات
الواسعة، أبصر الرجل الطويل ذا اللقب الآتي من
كتب الحكايا القديمة بعد تحويرٍ بدعوى اللفظ

المستمرّ، (شهرزاد)، أستمعُ إلى اللهجة المبتدعة التي لا تشبه أيّ عالمٍ حيٍّ، لغةٌ من الأزمان التي ولّت، أرى الشاعرةَ الوافدة من الداخل السوري وهي محتقنة لضحكاتها على القصيدة اللا (قصيدة)، هل كان لنا أن نضحك؟، أستنطقُ روعي المدهوشة الآن، أجل، كان علينا جميعاً أن نقهقه لأنّ القصيدة لا تَهَبُ نفسها لأنثى كاذبة، ولا تنكشفُ المفردةُ ببساطةٍ لامرأةٍ لا تقرأ سوى مجلة "الطليعي" وتدعُ زوجها دون غداءٍ أو ربّما تنسى أن تعير طفلها الوحيد انتباهاً!!، طُردنا من الثقافة، ثقافة السلطة التي كانت فوق كلّ سلطة، كما تفوّه بها القائلُ الخالد!، زُرعت الفوضى بدواخلنا عنوةً، وأسوءَ بالفوضى العامة جرفنا السيلُ نحو الظلام الذي أعجبنا ومن ثمّ أتلّف أرواحنا.

**

سنكبر لوحدها، لا أحد سوف يحمل عنا الألم،
سنهاجر ونملك ما يكفي من الذكريات، الآن أتذكر،
فقط بعد سنواتٍ من الغياب، لستُ هنا في وارد أن
أتحدّث عن الذكريات وحدها، فهي ليست ذكريات، بل
إنّها الرّاهن الذي أبصره دونما توريّةٍ أو إخفاء، سنعلّم
جيداً أنّ لا مدن نحويّنا سوى الذاكرة، أنّ لا مدن
تستطيع أن تكتبَ عنا سوى مدينتنا، لم أكنُ أستطيع
أن أعرف ماذا تعني الأغاني لولا مجموعةٍ من
الأشخاص الذين اجتمعنا مصادفةً في مرحلةٍ معيّنة
من العمر، كانَ الفارق بيني وبينهم في العمر والثقافة
كثيراً وجليّاً، وبأنّ هذا الفارق واضحاً بعد فتراتٍ طويلة
خبرْتُ فيها الموسيقى الجيّدة والكتاب الجيّد ومن ثم

أطلقتُ للفوضى عنانها وتركت عمري يسير على هداه
دون أن ألجم أيّة رغبةٍ بداخلي كما الآن وأنا لوحدي.

**

كانت الليالي تعني الكثير على عكس الرّاهن الذي لا
رائحة له سوى الدّمّ المسفوك، كانت الليالي تعني
القراءة والضحك على ما جرى في النهار بأسره، اللهو
والموسيقى والقراءة والكتابة، كان لكلّ ذلك وقتٌ
كافٍ، كان للسخرية مكانها الأبرز بين مفردات
الحياة/حياتنا، أتساءل الآن، ماذا لو كانت الحياة على
ما كانت عليه سابقاً ولم نشهد ثورةً أو ترحالاً؟، ماذا
كنّا سنصنّع وبأي شيء كنّا سنلهو، يسرّدُ داخلي الكثير
ويثرثر دونما رادٍّ له، الليالي كانت تعني الشخوص الذين
مرّوا في حياتي، دون أن أعي أن هناك يوماً ما قريباً
سيكون متوقّراً بكثرة كي أتحدّث عليهم وعلى

ابتساماتهم، هناك المزيد من الوقت كي أبكي، أقولُ في
سري كي لا أبدو هشاً لهم حينما أتكلّم عبر الإلكترونيات،
الكلام الذي يكونُ جافاً ولا يتعدى التحيّة والاستفسار
عن عراكٍ ما جرى بالقرب من مكان إقامتي بين
فصيلين مسلّحين لا يعرفان على ماذا يتعاركان
ويخلّفان الدم!!، هو اطمئنّ فقط على ما تبقى من
الأيّام لديّ، هكذا أفسّر الأمر ومن ثمّ أمضي إلى عملي
الذي لستُ مقتنعاً به مطلقاً، هو عملٌ كي لا أهاجر أنا
أيضاً وأبقى وحيداً إلى الأبد في معسكراتٍ للاجئين لم
أعتد عليها أو ربّما خبّرتها يوماً ما في بيروت العاصمة،
الموسيقى هي ذاتها والكتبُ أيضاً، الكتبُ/الأرواحُ التي
ترفرف أنّ المحادثة عبر السكايب، ثمّة رائحة للمكان
أتحسّسها بيديّ الناعمتين، ثمّة سكاكينُ للوحدةِ
أُبصرُها.

الشعر

- رَقَقْنَا الشَّعْرَ أَيُّهَا إِلَهِهِ، جُفَّتِ العُرُوقُ ذَهَاباً وَغِيَاباً، "لا شيءَ يعجبني" استعارَةٌ لدلالةٍ ما على الفشل في التلذُّذ، أَوْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَدَوِّنُ شَعْرًا مَعْتَلٌّ أَوْ مَجْنُونٌ؟، أَوْ لَيْسَ كُلُّ مَا يُكْتَبُ يَدَوِّرُ فِي فَلَكَ وَاحِدٍ وَحِيدٍ؟، أَعْطِنِي أَيُّهَا الْأَلَمُ مَا كَتَبَهُ صَدِيقُنَا الَّذِي يَقْطُنُ فِي الْفَشْلِ!!، أَرْسَلُوا إِلَيَّ صُورَ أَيَادِيكُمْ أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، أَيَادِيكُمْ الْبَيْضَاءُ لِأَصَافِحِهَا، أَقْبَلَهَا كَمُرِيدٍ خَائِبٍ.
- ثَمَّةُ شَيْءٍ مَا يَدَوِّرُ فِي ذَهْنِي الْآنَ، تُرَى إِنْ انْتَحَرْتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، مَنْ ذَا الَّذِي سَيَمْشِي فِي جَنَازَتِي؟ ، تُرَى هَلْ أَعْدُو فَقَطْ خَبْرًا وَصُورَةً خَاوِيَةً مِنْ أَيِّ مَعْنَى عَلَى صَفَحَاتِ الْإِلِكْتُرُونِ؟، مَنْ ذَا الَّذِي يَبْكِي وَيَكْفِكِفَ دَمْعَ أُمِّي؟!!

انتحار

لو أملكُ الجرأة، فقط يا ميشيما، الجرأة،
كنتُ سأبصُق في وجه الحياة
ألدُ طفلةً من عيني اليمنى وأبعثرُ بقدمي الأوراقَ التي
مرّقها عابرون في حياتي،
كنتُ سأهتف مثلك :
"الحياة قصيرة، وأنا أريد أن أعيش إلى الأبد"،
كنتُ سأتفرّغ للخيال وألوي عنق الحقيقة.

عُدِّي أَصَابِعُكَ.....

إلى سيماف حسن

- لَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا الدُّنُوّ مِنْ الذِّكْرِ إِلَّا لِلتَّسْلِيَةِ،
وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَبْقَى عَلَى مَقَرِّتَةٍ مِنَ الدُّعْرِ،
فَلْنَطْلُقِ الْعِنَانَ لِلْأَغَانِي...

(*)

- لَا تَعْنِينِي الْمَسَافَةُ الْبَعِيدَةُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ،
أَعْرِفُ عَاشِقَيْنِ رَكُضًا سَوِيَّةً وَلَمْ يَصِلَا مَعًا،
أَعْرِفُ كُلَّ الْمَعْرِفَةِ رِيحًا عَاتِيَةً تَضْرِبُ كُلَّ شَيْءٍ.

(*)

لَا شَيْءَ حَتَّى الْآنَ يَدْنُو، فَلَنَنْتَقِمَ مِنَ الْغِيَابِ،
لَا شَيْءَ حَتَّى الْآنَ يَهْمَسُ، فَلَنَصْرُخُ فِي وَجْهِ الطَّمَأْنِينَةِ.

(*)

سَنَوَاتٌ قَلِيلَةٌ وَأَكُونُ مُمَدَّدًا لِوَحْدِي فِي تَابُوتٍ أَحْمَرَ تُحِيطُنِي
الذكرياتُ،
سَنَوَاتٌ قَلِيلَةٌ وَنَكُونُ دَاخِلَ السِّرْدَابِ الْمُغْتَمِّ،
لَيْسَتْ أَنْفَاسُنَا لَنَا، إِنَّهَا هِبَةٌ لِلْقَادِمِينَ مِنَ الطَّرْفِ الْآخِرِ لِلْغِيَابِ.

(*)

عُدِّي أَصَابِعُكَ وَلَا تَشْعُرِي بِالْبَرْدِ
فَقَطَّ عُدِّي أَصَابِعُكَ وَاهْمَسِي فِي أُذُنِ الْبَيَاضِ الَّذِي حَوْلَكَ :
لَنْ أَتَذَكَّرَ إِلَّا مَا يَحُلُولِي...

(*)

إِنَّهَا الصَّحْرَاءُ وَالْأَنَامِلُ الصَّغِيرَةُ السَّمَرَاءُ، اللُّوحَةُ الْبَاهِتَةُ
لِأَعْمَارِنَا
الْغِيَابُ وَالْأَمَلُ وَالْدَّهْشَةُ، مُفْرَدَاتٌ سَنُغْسِلُهَا عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ .

- "لا أريدُ لهذي القصيدة أن تنتهي" :

المكانُ هبة الربِّ للإنسان، وتوريةٌ للجروح التي لا تجد
الطريقَ لها لأنْ تندمل، فقط يرتدي الجرح قناع
الشفاء، فما قاله الشعراء عن المدن لا يزال يُقرأ في
مخيّلتنا بكل هدوءٍ وهمس، وأكثرها قصيدة المدينة
تلك التي كتبها الاسكندرانيّ كفافيس، بقيت مدوّنةً في
الدفاتر المدرسيّة بخطِّ يدٍ وسيم أو ربّما سافرت مع
من غادر المدينة من الشعراء، الجنونُ صفةُ المدينة
أيضاً، كانت تُضفي عبقاً آخر يزيد من وعورة التجوّل
ليلاً، والمقبرةُ التي تتسع يوماً إثر يوم متخيّلين أنّها
سوف تغزو كامل المدينة مستقبلاً لتغدو مقبرةً هائلة،

لم نبرح نعتقد!، ولكن هل انتهت القصائد التي قرأناها تحت أسقف البيوت الأليفة؟، هذا هو السؤال الضخم، هل امّحى الطريق الترابي الطويل في الجهة الشماليّة للمدينة والذي يُفضي مباشرةً إلى الحدود التركيّة (عدوّة الأطفال والذاكرة)؟، لا، ثمّة من يرسم بالألوان على السماء قصائد هادئة ومترّنة عن المدينة، قصائد لن تنتهي بسهولة، كمّ الكلمات التي قيلت في زمنٍ مضى كفيلاً بأن ترسم عالماً كاملاً من القصائد التي لا تنتهي.

- خَمَارَة سَعِيد جَرَجَس:

من أكثر الأماكن رَافَةً، جَعَةً قادمة من دمشق
العاصمة ومن مختلف أصقاع الأرض، ابتسامة العمّ
المسيحي سعيد، كلّ ذلك باتَ مشهداً بالأبيض
والأسود لمدينةٍ قديمة طوت ذاكرتها واقتعدت الأرض
تدمع، فجَرَّها دعاةُ الدين الجدد ونسفوا ذكرى كلّ من
جلس يحتسي النبيذ المغشوش ويخرج نشواناً بفعل
صمت العمّ المسيحي، سليلُ العائلة المسيحية
الوحيدة التي أبت مغادرة المدينة، هكذا بضغطة زرّ
ما خياليّة ينفجر المكان بلا عقاب وينتهي كلّ شيء.

- صورةُ المدينة:

الرَّسَّامُ الَّذِي مَسَّهَ الْجَنُونَ لِأَنَّهُ كَانَ يُوَدُّ أَنْ يَرَسُمَ اللَّهَ، صَرَخَاتِهِ مِنَ النَّافِذَةِ نَحْوِ الْأُزْرَقِ الْهَادِيٍّ مَمْرَقًا الْأُورَاقِ الْبَيْضَاءِ: "سَأَتَمَكَّنُ مِنْ رَسْمِكَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَيْهَا الرَّبِّ"، غُرْفَتِهِ الطِّينِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَحْوِي رَسُومًا وَتَصَوِّرَاتٍ مُخْتَلِفَةً كَعَالِمِ إِغْرِيقِيٍّ مُحَارِبٍ مِنْ مَجْلِسِ الْكَهَنَةِ بَدَعُوهُ الْمَسَّ بِالنَّوَامِيسِ الْإِلَهِيَّةِ، اسْتَرَّاحَ إِلَى الْأَبَدِ، سِيرَى اللَّهِ الْآنَ وَسَيَتَمَكَّنُ مِنْ رَسْمِهِ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ، وَقَدِيمًا قَالَهَا مَجْنُونٌ آخَرٌ: "إِنْ كُنْتَ تُوَدُّ أَنْ تَعْشُقَ الْمَدِينَةَ الْقَدِيمَةَ فَابْتَعدْ عَنْهَا"، وَصَفَةُ نَاجِعَةٍ لِلْعَيْشِ دَاخِلَ النَّفْسِ بَحْرِيَّةٍ، وَلَنَنْتَظِرَ مَدِينَةً أُخْرَى سَتَوْجَدُ أَفْضَلَ مِنْ هَذِهِ.

*القامشلي، ثمة دماءٌ في الشارع العامّ: ٢٧/٧/٢٠١٦

إلى: زانا عمر

- ببساطةٍ هناك انفجار، بينما أحتسي القهوة صباحاً وعلى موعدٍ مع الأصدقاء لبحث مشاريع خاصةٍ بالسينما والكتابة كشيءٍ كنّا نحلم به مُدّ كنّا تحت حكم النظام السوريّ الذي كان ينسف كلّ أمل، كنّا قد ربّنا أمورنا قبل الانفجار بساعاتٍ قليلة، وفي المنزل ذاته الذي توعدنا فيه واعتدنا أن نلتقي، كان صوت الانفجار مدوّياً، تطايرت الجدران وتطايرت الأحلام، هنا القامشلي، أو قامشلو، لا فرق، ثمة انفجار يا أمّي، هكذا كنتُ أخاطب والدتي عبر الهاتف، طفلاً برتبة جهاديّ راقٍ له أن يعكّر صفو الصباح في المدينة، كل النوافذ انفجرت حزناً وتطاير الزجاج.

- الطفل مبتسماً:

من بين الركام والغبار خرجَ الطفل يريدُ لعبةً والدمُ يسيلُ، ما كانَ لأحدٍ أن يرهّاه أو يلتفت إليه، غير أنَّ الماضي لاح لنا، كنّا نظنُّ أنَّ البكاءَ يليقُ بالأطفال أو ربما هكذا اعتدنا، لكنَّ الراهنَ آلمنا، كنتُ سأكونُ تحتَ الأنقاض أنا أيضاً، كنتُ أتمنى أن أكون قبل أن أرى مشهدَ الأمِّ وهي تدمع على مقربةٍ من الغبار، مشهد الأب وهو يبحث عن طفله الذي كانَ يضحكُ قبل هنيهة.

على طول الشارع العامِّ الضاحِّ بالنَّاس كانَ ثمة حياةً وكانت هناك نقاطُ علامٍ يستخدمها الوافدون للمدينة، تهاوت نقاطُ العلام كلَّها مع لحظة دخول الشاحنة المفخَّخة وسائقها المراهق المُخدَّر بتراتيل غيبيةٍ من تنظيمه المتشدِّد أو ربَّما من بقايا ذاكرة النظام

السوري السوداء، لا زالت التحقيقات جارية وفق
القائمين على أمن المدينة، رائحة الخبز كانت تعم
المكان قبل الانفجار بلحظات لتتحول الرائحة بتفاعل
لا عقلاني إلى رائحةٍ للدم المُراق منذ أكثر من ستّ
سنواتٍ خَلَّت.

- نَزْفُ السِينَمَا :

جانب الشارع العامّ وفي الطريق التي تؤدي مستقيماً نحو تركيا مصنّعة الانفجارات في العالم، كان يركن مكتبٌ للسينما، بناء طينيّ يحوي صوراً لرجال اهتموا بالسينما واستشهدوا لأجلها في الجبال، أجهزة مونتاج وكّراسات عن السينما وحواسيبٌ ضخمة، لم يتبقّ شيء، صديقي المخرج كان يربّت على كتفي وهو يتأمل الخراب المحيط، تمكّنت فرق الإنقاذ من إخراج ما يمكن إخراجه، ذاكراتٌ إلكترونية تحوي خلاصة الرحلات إلى أماكن كان يسيطر عليها تنظيم داعش، رسومٌ إلكترونيّة لأطفالٍ كانوا يحبّون السينما ويودّون لو يصبحوا أبطالاً في الأفلام وغدوا شهداء في لحظة.

- الوجوه :

منذ عامين بالتحديد وأنا أُبصر الوجوه في (الحي الغربي) مكان الانفجار، بائع اللبن، بائع الموالح، بائع الملح الذي سخرنا من لافتته المعلقة في الهواء، كل الوجوه غابت في لحظة، فقط عمال البلدية واليات الجرف في جولة هي ليست الأخيرة بين الانقراض والأرواح.

أغنية تصدح من بيت جاري (الديري)

- في المأوى الجديد الذي استأجرته، ولصق الحائط
القرميديّ الذي يحوي خلفه في مربع الإسمنت الداخلي
عوائل من مختلف المدن السوريّة بعد الخراب الذي
لَجِقَ بالبلاد، أستيَقِظُ صباحاً على أنغامٍ من دير
الزور، أتعجّب، أنا لستُ في الثكنة العسكريّة حتّى
يتسنى لي أن أسمع هذا النغم ولست أحلمُ بكل
تأكيد!!، يباغتني صوت الطفل وهو ينده والدته "يُمّة
أريد طابقي"، لا شيء يمنعني حينها من النهوض لأفتح
باب الشرفة كي أرى الضوء الجديد وأتأمل سَكِينَةَ
ساعات الصباح، ولأرى بالذات ما لا يمكن لأحدٍ أن
يُبصره، الطفل "الديري" بلكنته التي لم أسمعها منذ

سنواتٍ طويلة وبللمعةٍ في عينه ينظر إلى شَعْرَي الطَّويل
مشدوهاً، (يَمَّةَ هاظ مجنون)!!، أبتعدُ قليلاً عن مرمى
نظره كي لا أُفزعهُ، أتذكّر دون أن أتحرّك من مكاني
وكشريط سينمائي زمن الخدمة الإلزامية في الثكنة
العسكريّة، دمشق ٢٠١١، أرى بجلاء الجندي (حجّي)
من دير الزور، الذي كان يأخذ حصّته من الإطعام
الصباحي ليبيعه فيما بعد مُجمَعَةً إلى باقي جنود
الثكنة كي يؤمّن ثمن علبة التبغ التي كانت قيمتها فقط
/١٥/ ليرة سورية والتي لا تساوي شيئاً في ليالي الحرب
هذه، أعودُ إلى الفراش كمّن أضاع شيئاً منذ سنواتٍ
غابرة وعثر عليه فجأة في مكانٍ غير متوقّع.
الآن، فنجان القهوة لا يبدّل من الأمر شيئاً، فقط أئثرُ
كحول الليلة الماضية في جسدي النحيل يغيّر من
تكوين الذكرى لتغدو رحيمةً أكثر.

- صباح ١٢ تموز ٢٠١١ :

في نوبات الحراسة يغدو المرء آلة رصد، لا شيء يمكنك أن تسهو عنه، طالما أنك ستدفع ثمن ذلك إهانةً أمام الملاء العسكري! أو ربّما على أقلّ تقدير سوف تخدم /٣٠/ يوماً مضافةً إلى الأعوام الطويلة من مكوثك في الأرض القاحلة، كان (حجي) الفتى الأصغر في عائلة ريفية من دير الزور، هكذا أسرَّ إليّ ذات ليلة صيفيّة باردة، لم يعتد رؤية الطااولات الحجرية تلك التي توضع عليها أواني الطعام الصدئة والتي يعود تاريخها إلى عام ١٩٧٣، بحركة واحدة أفرغ (حجي) رصاصةً في رأسه جعلت دماغه الممسوسة تندلق على التراب، اندلقت الصور العتيقة والأنغام التي كانت تصدح من جهاز التسجيل خاصّته الذي قال لي مرّة

أنّه سطا عليه من إحدى الأُرُقّة في دمشق القديمة
أثناء عمله في أحد المطاعم بالعاصمة، صودِرَ الجهاز
وعُلِّقت ثيابه العسكريّة على باب الثكنة كرمزٍ للجُبن
والخوف!، كيف أمكّنه فعل ذلك؟ يتّهامس الجنْدُ فيما
بينهم في عتمة المهجع مرتعدين من النقيب الأبله،
الممسوس بداءٍ نفسي مملّ، كان يهوى تسديد النّار
على شاشات التلفزيونات الصغيرة للجنود!، لم أعتد
كذلك أن أحمل تابوتاً طوال حياتي، حملت تابوت
(حجي) وأنا أغني في قلبي نغمةً من دير الزور، كنتُ أبكي
دونما دموع، مخافة أن أورّط أيضاً في الجُبن والخيانة
للسّرف العسكريّ الذي لم ألحظه مطلقاً!، بكلّ
بساطةٍ وعار رميناه لذويه المنتظرين أمام الباب
المعدني الضخم للثكنة خارجاً، رميناه على الإسفلت
السّاخن وسَطَّ همهمات الضباط عن الخيانة، لمحت
وجه والده الذي طأطأ رأسه أنّ اقترابه من الجثّة،
وكأنّني رأيتُ أسيّ خمسين عاماً يتقطّر وينسابُ على
الإسفلت،

في نوبات الحراسة يغدو النّغمُ المُدندنُ خليلَ المرء.

- ليل ١١ تموز ٢٠١١ :

"حجي" ضربه النقيب وصرخ في وجهه : "أنت مجنون، أنت عارٌّ على الجيش السوري"!، لا عار إلا عار (حجي) في عموم سوريا، لا خيانة في سوريا إلا خيانة (حجي)، كنتُ أقولُ في سري وأنا أنظف الكلاشينكوف مرتعداً من فكرة أن تستقر إحدى الطلقات في ذاكرتي، آنذاك لم يكن الصراخُ ممكناً، ولا استذكار خبز التنوّر وصباحات الأحد، ضُربَ (حجي) على مرأى من الجنود، نحن الذين قلنا أيضاً أنّه معتوه ومأفون ولا يغتسل، كان داخله نظيفاً كمنازل الجدّات، هذا ما تبين لاحقاً، وإلا فكيف يمكن لمعتوه أن يطلق رصاصةً بهذه

الخبرة؟، ثم كيف لنا أن نجرؤ على أن نبدو أكثر
انسانيةً من شابٍ انتحر لأنَّه ضُربَ؟.
كانت ليلةٌ ذهبنا بعيداً نحو الخراب، إشارةُ الحرب
كانت جليَّةً في ضوء القمر الشاحب، وشوشن (حجي)
بموته في آذان الجميع: "كلّ معنوه يغني ويحب النعم،
وكلُّ ذي عقلٍ يودُّ الحياة، سأرحل". صباحاً وبعد
سنواتٍ من الموت اليومي لا تزال الأغنية نفسها
تجتأخني كغيمةٍ باردة على وشك أن تُثلج.

- ليل ٢٠١٢/١٢/٣١ :

لم نستطع أبداً التصديق، كنّا على يقينٍ بأنّ الحياة خارج الأسوار الترابيّة قد ودّعتنا إلى ما لا نهاية، كان الصبحُ بارداً وكنّا ننتظر الإفراج عنّا والتأكيد بأنّنا قد أصبحنا مدنيين وربما سنُقتل برصاص الجيش في المظاهرات!!، على امتداد خطّ الإياب إلى الحياة المدنيّة أبصرنا الخراب والدمار بعد أشهرٍ من الاحتجاز داخل الثكنة خشيّةً من لحاقنا بالثورة كما فعل البعض.

أبوابٌ معدنيّة

- على طرفٍ آخر من العالم، لَصِقَ هدوء العم (نبيل)،
أعتني بطفله الذي غرق في ذاكرتي وأغدو وحيداً حين
لا أستذكره، وعلى طرفٍ آخر من الجحيم الذي
بداخلي أغدو الأوحَد في العالم، عندما أسهو عن
استذكار البيت الحقير الذي آواه.
- ماذا يفعلون السَّاسَة؟، إنَّهم يقتلون النَّاسَ بكلامهم
القذِر، يقول العم (نبيل) وهو منهمك في تغيير أرقام
الستلايت، ومن ثم متابعاً: "لا أدري كيف سمحت
لنفسي أن أكونَ أباً وأنا لا أستطيع منح ضمانَة الحياة

لولدي اليتيم؟، كيف يمكن لي أن أكون أباً وأنا عامل بسيط أملك اليوم ثمن علبة التبغ وفي الغد لا أملك /١٠/ ليرات أجرة السرفيس بين عملي ومنزلي؟"، حانقاً على البشريّة يضغط على أسنانه الصفراء المنخورة، غاضباً من السّاسة وظهورهم على التلفاز، "أنت مثقف وتدري أنّ السياسي يبيع الكلام ببخس الأثمان"، أضحك لمفردة "مثقف" التي تغادر فاهه بطريقةٍ مسليّة.

هل يمكن لأحد أن ينقذنا؟، أيّة قوة بإمكانها أن تمدّ يدها لتخرجنا من المستنقع النّين هذا؟، هل تعلم أنّ الهنود كانوا يقولون قديماً أنّ كل مفردة بلهاء تخرج من فم الإنسان تغادر ذرّات من روحه مع المفردة الخاوية؟، مردفاً وهو يحدّق في الشاشة: "لا تسألني كيف ذلك"، ينهي حديثه بقطّقةٍ على خشب الطاولة: "السّاسة لا بدّ وأنّ تنتهي أرواحهم دفعةً واحدة، عليهم أن يغادروا هذا العالم"

- البابُ المعدني:

على مقربةٍ من وجعه، أغدو بليداً وأنا أراقب كل كلمةٍ
تخرج من تلافيف سَخَطُهُ وليس بمقدوري فعل أي
شيء ولو صغير،

"العمّ نبيل" ليس رجلاً من ضمن العناصر الذين
رماهم الزمنُ في أماكن لا تشبههم وليسوا أهلاً لتلك
الأماكن، إنّما هو الأنموذج الكامل لجيل الحرب
الرّاهن، الذي عايش فساد الأُمس وصُدِمَ لفساد
الرّاهن، هل من منقذ؟"، السؤال الأعجوبة الذي لم
يُعتَر له على جوابٍ بعدُ، كان يقول: "على الرغم من
صغر سنّي، لكن قاسيت آنذاك أسىً فظيعاً، كنتُ
أعمل حطّاباً في القرية بعد الحصص الدراسية
المملّة، أعتَفُ من معلم المدرسة الطينية الوحيدة في
القرية النائية، لأنني قلت ذات مرّة أنّ المناهج خاطئة
ولا بدّ أن نعرف شيئاً عن إسرائيل غير السّمّ المبتوث
بين طيّات كتب التاريخ المزيفة، أيّ جيلٍ الآن؟، أية

ثقافةٍ تغدو معها انساناً ألياً بفكرك ومضيتك في الحياة
دونما غرض أو غاية؟ فلننجو بأنفسنا من هذه
المتاهة".

غادر ولد العم نبيل بصحبة والدته سوريا بعد اندلاع
الحرب رجاءً في العثور على مكانٍ ملائم خارج دؤامة
الحرب، لكن البحر لفظهم في الطريق إلى أوروبا الأمل!
بدا وحيداً كهلاً وهو يسرّد الحكاية بلمعةٍ في العين تكادُ
تماثل سيفاً قاطعاً ومسنوناً بحدة الأيام وقساوتها،
:"كنتُ أتمنى لو أنّ باباً معدنيّاً هوى على ابني وزوجتي،
الحالة تلك كانت ستمنحني سكينة أن أرى جثتيّهما
للمرة الأخيرة، لكن البحر لم يهيني هذه اللحظة، أنا
الذي ضيّعتُ لحظاتي بالتخطيط لمستقبلٍ مغاير
لولدي الوحيد، كنتُ سأنتظرهم ريثما يرسلون في
طلبي، والحالة ليست مختلفة الآن، فلا زلت أنتظرهم
ليرسلوا في إثري إلى العالم الآخر، وأنا المتيقّن أنه لن
يختلف مطلقاً في تضاريسه وأوجاعه عن عالمنا
المأفون هذا!"

- الغياب :

أسابيعُ مرت دون أن أَلْخَظَ (العمّ نبيل) وهو يمشي
الهويني بخطواتٍ مثقلة بغبار التعب، ويحيي جميع من
يصادفهم في طريقه دون أن يتمعنّ في الملامح وأصولها
القرويةً مثلما كان يفعل في شبابه كما أسرّ إليّ ذات
مرّة، شهوژ مضت دون أن أسمع ضحكته لمرأى
السّاسة على شاشات التلفزة، سنواتٌ مضت!!، كلّما
أبصرتُ باباً معدنيّاً أصرخُ في داخلي لعلّه يسمع، كلّما
أبصرتُ سياسياً ممسّط الشعر أبصق على الشّاشة
دونما أسفٍ على حركتي تلك، كلّما قرأت عن إسرائيل
في الصحف صرختُ، لكن لا رادّاً للصراخ سوى أنثرُ
الغياب.

هَلْ يُمَكِّنُنِي النَّوْمُ ؟

- في الوجد الذي أبصره، تجتاحني في اللحظة ذاتها آلاف
الدمعات المملحة بالذكرى، هذا ما يوبّخي عليه
الزمن وأرصفت الشوارع المضيئة التي كانت قبل
سنواتٍ بعيدة، أن أكون وحيداً للغاية!، ماذا فعل بك
المشيّب يا أبتاه؟، هكذا يستنطقُ الولد شاهدة قبر
أبيه، القبر الوحيد الذي سويّ بالرّخام الثمين، لتحمل
الوالدةُ السّمراء عجز سنواتٍ بعيدة وتهبها للتراب الذي
يسرّب الجسد العجوز، على مقربةٍ من كلّ شيءٍ مُبعد
تغدو الألوانُ باهتةً ويغدو الأملُ مشلولاً غير قادرٍ على
الهبّات، إذن، فلنمرّ مرور الكرام على التراب الأحمر،
لنقبّل الاسم المحفور والأرقام الخاوية من كلّ معنى.

الحكايةُ صعبة السَّرد في الليل العظيم الذي يتلصَّصُ
على سَكَّان الطوابق فوق منزلي، وحيداً في الطابق
الأرضي، القريب من قبرِ فرعونِي، أَسْتذكِّرُ كلَّ الكلام،
أبعثرُ الأوراق الذي أودعها الأب قبيل رحيله، أخصَّ
النظرَ للورقة البيضاء التي تحمل ختماً أزرقَ باهتَ
اللون، حُطَّت باليدِ وصيَّة لا يمكن لأحدٍ أن يتيقَّنها،
"أريدُ أن أُدْفَن تحت تراب باحة البيت! ، أريدُ لنور
مصباح الكاز أن يضيء الفسحة الترابيَّة".

هل نسيَ الأب أن البيت ليس مُلكه؟، يقال: قبيل
الموت تغدو الذاكرة مشوَّشة والأصابع تتعثر ويغدو
الإنسان غير قادرٍ على تصديق ما حوله، ثَمَّت غشاوةٌ
ما تحولت دونَ الرؤية الصَّادقة، هذا كلُّ ما في السرِّ،
كان يخوض الموتَ عقلياً قبل أن يستسلمَ بدنه
للغياب اللامتناهي.

**

شارعٌ مستقيم، أب نرق، ودراجة هوائية، فقط هذا
كلّ ما يزيّن الحيّ الفقير، همهمات النسوة على
الشرفات، وسيلة تصديق أنّ الحياة بطيئة جداً وأنّ
البشر كسالى ، وحده الكلب الأسود يضيف رونقاً ما
على التشكيل الطبيعيّ، يوقظني الأب بنفخ هواءٍ
رحيم على وجهي المنمّش، : "هل نمت جيّداً؟"، سؤالٌ
مفرد لا غيره يستنهض فيّ ألمّ العبور إلى حياة النوم
مجدّداً، جواز سفرٍ خياليّ يهبني إياه الشخص الذي في
اللوحة المعلّقة فوق السرير، "لا"، أجب فقط
بمفرّدٍ وحيدة وأدس رأسي تحت الشرشف الأبيض،
لم يوبّخني الأب على صنيعي ذا، فقط كنت أراه يمدُّ
يده السمرء ليتأكّد من أنّي لا زلتُ حيّاً، يجسّ بأنامله
جسدي ومن ثمّ يمضي تاركاً الفراغ المريع لنفسي
الذائبة.

**

على رسلِكَ يا وَلَد، لا يزالُ الترابُ ثَقِيلاً!!، لم أعرف كُنْهَ
العبارة حتَّى اللحظة وأنا الآن أشارف من العمر عتياً،
حَدَّث ذاته دون توريَّة أو غياب، وكانَ الإبريقُ الفضي
ذاته الذي سكب منه ماءً على يد الأبِ حاضراً، لكن
ماذا حدث يا أبي وأنت تبتسمُ للمارَّة ومن ثم للزَّوار في
المشفى القَدْر؟!"، "أخرجوني من هنا، أريدُ أن أموت
على فراشي المغبر"، لم يكُ لأحدٍ أن يخرجِه، فاقَ الألمُ
كُلَّ شيء، ألمٌ يُلطِّحُ الجدرانِ القَدرة، ألمٌ خبيرٌ في
تعرَّجاته واستدارتهِ على الكلِّ المندهش، ألمٌ يخطُّ
أَلَمًا، وحدهُ الترابُ الأحمر المنهال على جسده أضفى
الرَّونقَ الأبهى،

- في البعيد كان ثَمَّتَ رجلٌ يدوِّن بعينيه عباراتٍ ويزرَعُ
الوصايا في باحةِ فؤاده.

قَسَمُ النِّهَايَاتِ

ببطءٍ حمل الفتاة للرسائل ومحو ما كان أمساً معتماً...
بصراحة الأطفال التي نؤمن بها في كلِّ حينٍ...



الهواء كان نظيفا في القرية، وكذلك
الهراء الموزع في الأنحاء، كان أبي يمسك
عنق الزجاجة وكأنه يتهاى للذبح، كان
لوحده داخل السرد، يخبئ لنا أياما قصية
في البعد، كنت الصغير الوقح، لا زلت حتى
الآن أنام دون أن أهتف: تصبحون على خير.

